حلم بلد غريب

بقلم : جرالدام جرين
ترجمة : ابراهيم سوريال

كان بيت الهر بروفيسور محجوبا عن جميع الجهات بستار من أشجار الصنوبر المزروعة وسط صخور رمادية ضخمة . وكانت المسافة بين البيت والعاصمة لا تزيد على عشرين دقيقة بالسيارة على طريق ضخم تتركه السيارة لتنعطف نحو الشمال بضع دقائق أخرى . ورغم ذلك فانك تحس أنك موجود في أعمق أعماق الريف ، اذ يخيل اليك أنك خلفت وراءك المقاهي والاوبرا والمسارح على مسافة مئات من الكيلومترات .

وقد ترك الهر بروفيسور الخدمة منذ سنتين عندما بلغ الخامسة والستين ، فقد انتهى عندئذ عمله في المستشفى وأغلق عيادته في المدينة ، وعمله الآن قاصر على بعض المرضى المحظوظين الذين لابد لهم — لكي يصلوا اليه من أن يمتلكوا سيارة ، أما اذا كانوا من الفقراء (فهو لم يحتفظ بعملاء اغنياء قليلين فقط) فانهم يأخذون الحافلة ثم يتركونها ليقطعوا باقي الطريق سيرا على الأقدام ، فيبلغوا الأشجار والصخور بعد عشر دقائق .

في ذلك اليوم كان هناك واحد من هؤلاء العملاء الفقراء في عيادة الطبيب منتظرا معرفة مصيره - وكان أمام غرفة الانتظار حاجز هو عبارة عن باب يتداخل مصراعاه بعضهما في بعض ويضع على صالة كبيرة لم يكن المريض قد دخلها من قبل . وكانت هناك مكتبة من الخشب الثقيل الداكن مملوءة بمجلدات داكنة ثقيلة أيضا . يبدو انها جميعا تتناول الطب (اذ لم يحدث أن أحدا رأى الهر بروفيسور يهتم بمؤلفات أقل دسامة . أو أن أحدا سمعه يبدي رايا ، حتى لو كان الرأي المطلوب يتناول أكثر الكتاب الكلاسيك احتراما . ولقد سئل يوما عن تسمم مدام بوفاري فأكد أنه لم يسمع اطلاقا عن كتاب مدام بوفاري هذا ؛ كما أبدى مرة أخرى نفس الجهل فيما يتعلق بصلاح مرض الزهري في أشباح ابسن) . وقد كان مكتب هذا الطبيب داكنا ثقيلا مثل مكتبته ، والواقع أن مكتبه كان هو وحده الذي يستطيع — دون أن يتحطم — تحمل ذلك التمثال المصنوع من البرونز

المصبوب والذى يزيد ارتفاعه على قدم، والذى يستخدمه البروفيسور لتثبيت الأوراق . والتمثال لرومشوس مقيدا الى صخرته بينما النسر فى كبده ينقار نسر منشور الجناحين (وكان يحدث أحيانا أن يشير الطبيب الى التمثال فى مزاح بارد ، اذا ما أعلن لأحد العملاء اضطرابا ما فى الكبد) .

كان المريض يلبس بدلة من الصوف قديمة جدا وان كانت لا تزال تحتفظ بمسحة من أصل عريق ، وكانت أطراف أكمامها مستعملة ـ اما حذاؤه السميك ذو الرقبة فقد خدمه مدة طويلة ، وكان المريض قد علق فى المر معطفا ومظلة مطر . وكان هناك تحت المظلة زوج من الأحذية التى تلبس فوق الحذاء العادى للسير فوق الجليد وكانت آثار الجليد لا تزال عالقة به .

كان عمره فوق الخمسين ، قضى حياته كلها خلف مكتب صغير فى أحد المصارف، وتفضل دأبه وأدبه وصل الى مركز ضراف ثان ، وما كان فى استطاعته أن يصبح الضراف الأول ، اذ أن هذا الأخير كان يصغره بخمس سنوات على الأقل .

أما الهر بروفيسور فكان ذا لحية رمادية قصيرة ، يلبس نظارة باطار من الصلب من الطراز القديم ، وعلى يديه المكسوتين بالشعر نوعا يقع بقعة من أثر السنين . واذ كان نادر الابتسام فلم تكن هناك فرص كثيرة لرؤية أسنانه القوية السليمة . وبينما هو يداعب بروفر بروميثيوس قال بصوت ثابت :

ـ فى زيارتك الاولى قلت لك ان العلاج بدأ متأخرا جدا بحيث لم يعد فى الامكان ايقاف تقدم المرض ، وان تحليل الافرازات يثبت ان ..

ـ ولكن ياهر بروفيسور ، انك تعالجنى منذ اشهر عديدة ، ولم يعلم أحد بأى شىء ، ففى وسعى ان أواصل عملى فى المصرف . الا تستطيع ان تعطيل علاجك قليلا ؟

فاتى الطبيب بحركة عميقة من الابهام والسبابة كما لو كان سيتناول قطعة من الطباشير وقال :

ـ سيكون هذا خرقا للقانون ، فالمصابون بأمراض معدية يجب أن يقيموا فى المستشفيات .

ـ ولكنك أخبرتنى بنفسك يا هر بروفيسور أن هذا المرض واحد من أضعف الأمراض انتقالا بالعدوى .

ـ ورغم هذا فها أنت قد أصبت به .

فتساءل المريض كيف ؟ كيف ؟ وكان تساؤله يشى بالضجر المتناهى الذى يصيب انسانا وجه لنفسه سؤالا بعينه مرات لا يحصرها عد .

ـ ربما حدث ذلك عندما كنت تعمل فى المنطقة الساحلية . ففى الموانى تكثر الاتصالات المنوعة .

ـ اتصالات ؟

ـ انى أفترض انك رجل كالآخرين .

ـ ولكن ذلك كان منذ سبع سنوات .

ـ لقد شاهدت حالات يكمن فيها هذا المرض عشر سنوات قبل أن يظهر .

ـ ولكن ستكون هذه نهاية عملى ياهر بروفيسور ، لن يقبلنى المصرف بعد ذلك مطلقا ، وسيكون معاشى ضئيلا .

ـ انك تبالغ . ان مرضى هانسن يمكن شفاؤه تماما بعد فترة معينة .

ـ ولماذا لا تطلق على هذا المرض اسمه الحقيقي ؟

ـ لقد قرر المؤتمر الدولي منذ خمس سنوات تغيير الاسم .

ـ ولكن الناس لم تتغير يا هر بروفيسور ، فاذا أرسلتني الى المستشفى فسيعرف الناس جميعا أني أبرص .

ـ ليس لي خيار، ولكن اؤكد لك أنك ستكون هناك على ما يرام ، فهناك على ما اعتقد للبيطريون في جميع الغرف ، كما أن هناك ملعبا للجولف تحت تصرف المرضى .

لم يبدو على الهر بروفيسور اي دليل ء في المثل الاذا اعتبرنا عدم دعوته المريض للجلوس وبقاءه هو نفسه واقفا منتصب الظهر كجندي حراسة خلف بروميثيوس وصخره ، أقول الا اذا اعتبرنا ذلك دليلا على المثل .

ـ هر بروفيسور ، اقسم لك ، لن أقول كلمة واحدة عن ذلك لأي انسان ، وفي مقدورك ان تعالجني تماما كما سيفعلون في المستشفى ، انك تقول بنفسك ان مرض العدوى يكاد تكون معدومة ، ان لدي بعض المدخرات يا هر بروفسيور ، انها ليست مبلغا ضخما ، ولكني سأعطيها جميعها لك .

ـ يا سيدي العزيز ، يجب أن تكف عن محاولة شرائي ، فان هذه المحاولة ليست مجرد اهانة لي فحسب ، بل انها تصرف ينتسم بعدم الادراك من جانبك، أسف اذ يجب أن أطلب منك الانصراف الآن فوقتي مشغول تماما ...

ـ هر بروفيسور ، ليست لديك اية فكرة عن معنى هذا بالنسبة لي . اني أحيا حياة بسيطة ، ولكن عندما يكون الانسان وحيدا في الدنيا فانه يعطي كل عاطفته لعاداته . اني أذهب الى مقهى على شاطىء البحيرة كل يوم في الساعة السابعة وأظل هناك حتى الساعة الثامنة، الجميع يعرفونني في ذلك المقهى ، وقد اجلس احيانا مع بعض السيدات ، وفي يوم الأحد أحد الساحرة الصغيرة التي تسير في البحيرة و ...

قاطعه الهر بروفيسور في حفاف .

ـ يجب ان تكف عن عاداتك لمدة سنة او سنتين .

ـ اكف ؟ هل قلت اكف ؟ ولكني لن أستطيع استئنافها بعد ذلك مطلقا ، مطلقا ... ان البرص ، كلمة، انه ليس ، مرضا ، لن يصدق الناس مطلقا أن من الممكن شفاء الانسان من البرص ، ليس في مقدور الانسان أن يشفى من ، كلمة ، .

ـ سيكون في حوزتك شهادة موقعة من سلطات المستشفى .

ـ شهادة ؟ ان في استطاعتي ايضا ان أحمل ترسا صغيرا .

واتجه المريض نحو الباب ثم المر حيث مطلته وحذاؤه الذي يستعمله للسير فوق الجليد، وجلس الهر بروفيسور الى مكتبه مصدرا آهة ارتياح لم يبتد أثرها خارج الحجرة ، ولكن المريض ما لبث أن عاد أدراجه .

ـ ألا تثق في قدرتي على الكتمان ياهر بروفيسور ؟

ـ اني أعتقد تماما ، واستطيع ان أؤكد

لك ، أنك ستلزم الصمت . فهذا في صالحك أنت . ولكن لا تستطيع أن تتوقع من طبيب في مثل مركزي الاجتماعي أن يخرق القانون . فهو قانون معقول وضروري، واذا لم يكن أحدهم قد حالفه في مكان ما لما كنت أنت هنا اليوم. الى اللقاء يا هرمس ..

وقبل أن يتم الطبيب جملته الأخيرة، كان المريض قد أغلق الباب الخارجي وبدا في السير بين الأحجار واشجار الصنوبر متجها نحو الطريق الكبير صوب محطة الاتوبيس والعاصمة .

واتجه الهر بروفيسور نحو النافذة ليتأكد من رحيله ، فرآه محاطا بدرات الحليد المتطايرة في رحاوة بين أغصان الشجر ، ثم رآه يطوح يديه كما لو كان يعرض على احدى الصخور فكرة جديدة ثم استأنف السير بخطى ثقيلة ، وبعد قليل اختفى عن نظر الطبيب . فتح الهر بروفيسور ابواب قاعة الطعام واتجه في خطى ثابتة نحو البوفيه الذي كان هو ايضا مثل المكتبة قطعة أثاث ثقيلة . وبدلا من بروميثيوس كان هناك قنينة كبيرة من الفضة حفر عليها اسم الهر بروفيسور وتاريخ يرجع الى أربعين عاما، لقد كان ذلك تذكارا حصل عليه الطبيب في لعبة السلاح . وبجانب هذه القنينة حلية للسائدة كبيرة من الفضة تحمل نقشا ،وهي هدية من هيئة المستشفى بمناسبة اعتزال الطبيب العمل . وتناول الهر بروفيسور تفاحة خضراء صلبة وعاد الى حجرة الفحص حيث جلس من جديد الى مكتبه وبدأ في الفصم على فمه كروك ، كروك ، كروك .

***

في نفس الصباح ، بعد ذلك بفترة وجيزة ، استقبل الهر بروفيسور زائرا آخر ، وصل الى المنزل في سيارة مرسيدس بنز ، واستقبله الهر بروفيسور بنفسه عند الباب ثم اصطحبه الى داخل المنزل . وقد قدم للزائر المقعد الوحيد الذي يوفر بعض الراحة دون جميع قطع الأثاث في مكتبه قال

– يا هر كولونيل أرجو أن تكون زيارتك بدافع الصداقة فقط دون أية علاقة بالعمل . اتخذ الكولونيل مظهرا لاهيا حين أجاب

– اني لا أمرض أبدا . ان ضغط الدم عندي طبيعي ، وورثي هو ما يجب أن يكون وقلبي متين . اني أعمل كآلة والواقع ان من الصعب على أن أتصور أن هذه الآلة ممكن أن تبلى مع الزمن . اني لا أحمل هموما وجهازي العصبي في عافية الاتزان

– لقد استرحت لمعرفة أن زيارتك للمجاملة يا هر كولونيل .

عقد الكولونيل ساقيه الطويلتين النحيلتين اللتين غطاهما قماش «التويد» الانجليزي واستطرد

– ان الجيش هو المهنة الصحية أكثر من أية مهنة أخرى ، في بلد مجايد مثل بلدنا طبعا . فالمأمورية السنوية تبدي لنا جميلا عظيما اذ تنشط أجهزتنا وتنظف دمنا .

– نود ان أنصح بها مرضاي .

– سنستطيع ان نقبل مرضى في الجيش ... ثم أضاف الكولونيل في ضحكة جافة انما نترك ذلك للأمم المتصارعة، فهي لن تصل أبدا الى ما نحن عليه من فاعلية .

قدم الهر بروفيسور سيجارا للكولونيل ، فأخرج هذا مقص سيجار من علاف جلدي صغير واستعد للتدخين ثم سأل

ـ هل قابلت الهر جرال ؟

ـ مرة او مرتين .

ـ سيحتفل الفيله بطلوعه السنمين .

ـ حقا ؟ انه يبدو أصغر من سنه .

ـ فعلا ، ولقد هيأ له أصدقاؤه ـ وأنا على راسهم ـ مسرات غير عادية بهذه المناسبة . انك تعرف طبعا تسليته المفضلة ؟

ـ كلا .

ـ لعبة الروليت ، فمنذ خمسين سنة يقضي معظم اجازاته في مونت كارلو .

ـ لا بد أن جهازه العصبي هو ايضا متين .

ـ بالتاكيد . وحيث انه لن يستطيع ان يحتفل بعيد ميلاده في مونت كارلو بسبب عارض طارئ ، فلقد فكر أصدقاؤه في ان يحضروا اليه المائدة الحمراء .

ـ وكيف يمكنهم ذلك ؟

ـ لقد اعد كل شيء بطريقة مرضية . سيصل من مدينة ، كان ، احد المختصين في ادارة اللعب مع مساعديين والادوات اللازمة . وكان احد اصدقائي سيعيرنا منزله في الريف . فانت تعلم ان كل هذا يجب أن يحدث في الخفاء تماما بسبب لا معقولية قوانيننا . من الممكن تصور أن البوليس سيغمض عينيه في مثل هذه المناسبة ، ولكن كبار الموظفين عيورون جدا من الجيش . ولقد سمعت مدير البوليس يعلن مرة في احتفال دهشت اذ وجدته مدعوا اليه ، سمعته يعلن ان رجاله هم الذين حاربوا في الحروب الوحيدة التي خاضتها بلادنا .

ـ لم افهم ماذا تقصد .

ـ أوه ! لقد كان يشير الى الجريمة ... مقارنة خالية من المعنى ، اذا ما هو الشيء المشترك بين الجريمة والحرب ؟

ـ لقد كنت تقول انكم اعددتم كل شيء بطريقة مرضية .

ـ نعم ، مع الهر مدير عام البنك الوطني . ولكن اليوم ، فجاة ، تحدث الى بالتليفون ليقول ان احد أطفاله مرض كما يجب أن تتوقع ـ صيب بالحصبة . وهكذا فكل منزله الآن في حالة طوارئ صحية .

ـ سيخيب أمل الهر جرال .

ـ ان الهر جرال يجهل كل هذا . فهو لا يعلم سوى أننا نعد احتفالا في الريف تكريما له .

فاحتهد البروفيسور في اخفاء شعوره بالسخرية كان يعتريه حينما اصابه من مهنته وقال .

ـ اذن لقد اتيت الى لترى ماذا كنت استطيع ان اوحي اليك به .

ـ بكل بساطة ياهر بروفيسور ، اتيت اليه لاستعير منزلك من اجل الحفلة هذا المساء ، وستطيع أن تحدد المشكلة في عبارات بسيطة جدا . ان المنزل الذي يقام فيه الحفل يجب أن يكون في الريف . ولقد شرحت لك السبب . كما يجب ايضا ان يشتمل على صالون فسيح بدرجة

تسمح بوضع المؤائد ، وسيكون لدينا منهائلات على الاقل اذ سيكون هناك مائة مدعو . وكذلك يجب طبعا أن يكون صاحب المنزل شخصا لا يعترض عليه الهر جنرال ـ توجد مساكن أكبر كثيرا من مسكنك ، لكن لايمكن أن يفكر انسان في أن يحمل الجنرال بدخلها كضيف ، ولا نستطيع كثيرا في هذه الظروف أن نلجأ الى التوسل .

ـ هذا بالتأكيد يشرفني جدا ياهر كولونيل ولكن ...

ـ ألن أن هذه الأبواب تنزلق فتعطي اتساعا أكبر كثيرا للصالة ؟

ـ نعم ، ولكن ...

ـ آسف ، ماذا كنت تقول ؟

ـ لقد فهمت أن الاحتفال كان يجب أن يتم هذا المساء .

ـ نعم .

ـ لا أدري اذن كيف يمكن أن يكون هناك وقت كاف .

ـ هذا أمر يتعلق بسرعة الحركة والتنقل . اتركن الى الجيش في هذه الأمور .

ثم أخرج من جيبه مفكرة صغيرة وكتب كلمة «أنوار» وأخذ يوضح معناها للهر بروفيسور .

ـ يجب أن نعلق بعض الثريات . هل أستطيع أن أرى الغرفة الأخرى من فضلك ؟

وأخذ يدرعها بساقيه الطويلتين المطاطيتين بعماش التويد .

ـ انها ستكون ، قاعة خاصة ، جميلة عندما تتداخل الأبواب وتوضع الثريات مكان هذا المصباح الموضوع وسط السقف والذي ارجو ان تسمح لي أن أصفه بأنه عادي تماما . اما مفروشاتك فانها ستنقلها الى أعلى ، الى الدور الأول ، وستحضر بالطبع مقاعدنا الخاصة . كما أن هذه المائدة ستكون على أي حال أن تتحول الى نار . يبدو انك كنت تلعب السلاح قديما يا هر بروفيسور .

ـ نعم .

ـ لقد كان الهر جنرال يحب لعبة السلاح كثيرا . قل لي الآن ، أين تظن أن باستطاعتنا وضع الفرقة الموسيقية؟

ـ الفرقة الموسيقية ؟

ـ ان فرقتي هي التي ستقدم الموسيقيين . ألن أنهم ـ على اساس العروض ـ يستطيعون أن يجلسوا على السلم .

والتفت الى ناظمة غرفة الاستقبال وتفحص ارجاء الحديقة الشتوية التي كانت تحيط بها عامة الصنوبر المظلمة .

ـ هل هذا كشك ، ذلك البناء الذي أراه هناك ؟

ـ انه كذلك .

ـ ان النوبة الشرقية هي التي تتلاءم مع المناسبة واذا عرف الموسيقيون في الكشك ، وتركنا احدى النوافذ مفتوحة قليلا ، فسوف تصل الينا الالحان في هدوء .

ـ ان البرد ...

ـ ان لديك مدفأة جيدة جدا ، والستائر سميكة .

ـ لاتوجد في الكشك اية تدفئة .

ـ يستطيع الرجال أن يلبسوا معاطفهم الرسمية . وكما تعلم فان العرف نفسه بالنسبة للاعب الكمان ...

ـ هل سيحدث كل ذلك هذا المساء؟

ـ هذا المساء .

وابتسم الهر بروفيسور ابتسامة سريعة مقتضبة لاخفاء ما يعانيه من نقص في الشجاعة وقال

ـ لم يحدث لي حتى الآن أن خرقت القانون .

ـ ولن تجد مناسبة أفضل من هذه لتفعل ذلك .

***

بدأت سيارات نقل الأثاث تصل قبل نهاية النهار بوقت طويل . وكان أول ما وصل هو الثريات وأكواب الشراب التي ظلت في صناديقها وسط مدخل البيت في انتظار وصول عمال الكهرباء ثم وصل الخدم في نفس اللحظة التي وصلت فيها عربة نقل تحمل أربعة وسبعين مقعدا صغيرا مذهبا . وذهب الحمالون الى المطبخ حيث شربوا بعضا من الجعة قدمتها لهم مديرة منزل الهر بروفيسور في انتظار ظهور العربة التي ستحضر موائد الروليت الثلاث . أما العجلات نفسها والجوخ الأخضر وعلب « الفيشات » المصنوعة من البلاستيك ، ذات الألوان والأشكال المتنوعة ، فقد أحضرها بعد فترة الموظفون المختصون الثلاثة ، رجال جادون يرتدون بزة سوداء ، في سيارتهم الخاصة الانيقة . ولم يسبق للهر بروفيسور أن رأى مطلقا كل هذه السيارات تقف أمام منزله . فأحس أنه غريب ، أنه مدعو ، وتلكأ أمام باقة عرفته مشفقا من لحظة نزول السلم ورزية العمال . لقد كان الممر الطويل الذي يفتح عليه باب غرفته شبه مسدود بقطع الأثاث التي نقلوها من الدور الارضي .

ومع بدء هبوط شمس الشتاء الحمراء خلف أشجار الصنوبر السوداء بعد الظهر ، ازداد عدد السيارات في الممر الكبير . لقد وصل أولا صف طويل من سيارات الأجرة ، واحدة بعد الأخرى ، ذات لون أصفر فاقع كأنها عقد من العنبر ، وخرج منها في غير نظام عدد كبير من الرجال الصخام مرتدين المعاطف العسكرية ومعهم آلات موسيقية كانت في معظم الأحيان ترتطم بأبواب السيارات فكان لا بد من اخراجها منها بحرص وتصعوبة . لقد كان عسيرا في الواقع تصور كيف تسنى ادخال الفيولونسل ••• لقد كان الجزء الأعلى من هذه الآلة يخرج أولا كأنه النصف العلوي « لمانيكان » ، وبعد ذلك تظهر الكتفان عريضتين جدا . والتف الموسيقيون في دائرة مرتدين معاطفهم الطويلة ، وقد صوبوا أقواسهم كأنها بنادق معدة للانطلاق ، في حين أخذ رجل قصير مسنك يمثلث يصيح مصدرا لهم الارشادات . وبعد لحظة كانوا جميعا قد غادروا مكانهم أمام المنزل وانبثت من كشك الحديقة المبني على الطراز الشرقي أنغام متنافرة صادرة عن الآلات التي يضبطها الموسيقيون ، وبدأت الانغام تطفو فوق الجليد . وفي الممر سمع صوت شيء يتكسر ، وأدار الهر بروفيسور الى الخارج ، رأى أن ذلك كان أحد مصابيح السقف الذي لم يعجب الهر كولونيل ، وقد وضع من فوق مائدة صغيرة حيث لم يكن موضوعا في اتزان تام ـ أما المكتب الثقيل والمكتبة ذات الألواح الزجاجية والدواليب الثلاثة الخاصة بغرفة الفحص فقد كانت عندئذ تكاد تسد الممر تماما ، وتناول الهر بروفيسور تمثال بروميثيوس البرنزي ووضعه في أمان داخل غرفته رغم أنه كان أقل ما في

المنزل قاطبة للنكسر ـ ومن اسفل كانت تتصاعد ضوضاء المطارق وصوت الهر كولونيل مصدرا أوامره . ورجع الهر بروفيسور الى غرفته حيث جلس على سريره وأخذ يقرأ « شوبنهور » لفترة وجيزة ، بغية تهدئة اعصابه .

***

وبعد ما يقرب من ثلاثة ارباع الساعة ذهب الهر كولونيل الى الهر بروفيسور في غرفته ، ودخل الى الغرفة بخطوة نشطة ، مرتديا رداءه الرسمي الطويل الخاص بالسهرة لذلك ظهرت ساقاه أكثر طولا وأكثر نحافة مما كانتا تبدوان من قبل .

ـ ان ساعة الصفر تقترب وبعض مستعدون تقريبا . لن تستطيع ان تتعرف على منزلك يا هر بروفيسور ، فقد تغير كلية، سوف يحس الهر جنرال بنفسه في جو أكثر بهجة وتحررا ، وسوف يقدم الموسيقيون مقطوعات من شتراوس و أوفنباخ مع بعض أنغام ليهار التي يسهل على الهر جنرال تمييزها عن غيرها . ولقد راعيت أن تعلق على الجدران بعض اللوحات المناسبة . وعندما تدخل وترى القاعة الخاصة ، ستتبين انها لم تكن مشغولين بمجرد تمرين عسكري عادي ، فان الاهتمام بالتفاصيل هو علامة الجندي المتاز ـ ان منزلك هذا المساء ، يا هر بروفيسور ، هو كاريبو على شاطىء البحر الأبيض ، ولقد فكرت في احضاء أشجار الصنوبر بطريقة أو أخرى ، ولكن لم أجد وسيلة لمحو الخليج الذي يتساقط باستمرار .

ـ مدهش ، مدهش فعلا .

واذا قال الهر بروفيسور ذلك، تفاهى الى سمعه نغم من « هيلين الجميلة » آتيا من الكشك البعيد ، ولم تكن السيارات تكف عن التوقف في الشارع الكبير ، فشعر انه بعيد عن منزله كما لو كان يسكن بلدا مجهولا .

ـ أود أن تسمح لي بان أسلمك كل شيء هذا المساء ، فاني بالكاد اعرف الهر جنرال ، ولهذا فسوف أتعشى في هدوء بشطيرة أتناولها في غرفتي .

ـ هذا مستحيل قطعا ، ايك المضيف، والهر جنرال يعرف الآن اسمك ولو أنه لا يتوقع طبعا هذا المنظر المعد لاستقباله ... آه ، هاقد بدأ المدعوون في الوصول لقد طلبت منهم المجيء مبكرين بحيث أنه في لحظة دخول الهر جنرال يكون كل شيء على أكمل وضع ، فالمحلات عندئذ تدور ، والرهان مدفوع ، والموظفون المشرفون يستعدون لمناداتهم ... ، وينبسط ميدان المعركة أمام الهر جنرال تعال يا هر بروفيسور ، هيا بنا نبعث بعض النشاط حول الموائد ... لقد حان وقت تزويدنا معا لافتتاح الحفل .

كان السير في الشارع غير مأمون تماما فوق تلك الطبقة الرقيقة من الجليد المتساقطة حديثا ، وكان الاوتوبيس القادم من العاصمة يسير بسرعة لا تفوق سرعة عداء يقوم بالتدريب ويخشى أن ينهار احدى عضلاته قبل المنافسة العظمى . وكانت قدما الرجل الهرمين مشلحتين رغم أحذية الجليد ، وربما كان يحس البرد نتيجة التفكير في المحاولة عديمة الجدوى التي كان على وشك ان يقوم بها . لقد كانت حركة المرور في الطريق هائلة ذلك المساء ، سيارات أجرة صفراء غالبا ما تسبق الأوتوبيس، وسيارات صغيرة ، سيور ، ملبنة

متسلل لابسين زيا متماثلا او ملابس السهرة ، صاحكين مغنين ، وسمع تحذيرا صادرا في كبرياء غير عادية منبعثا من صفارة فوية ربما كانت في سيارة بوليس أو اسعاف ، فارغم هذا التحذير الاوتوبيس على ان ينحني جانبا في ثقل ثم على ان يقف محتكا بكتل الجليد الزرقاء ليفسح الطريق لسيارة مرسيدس فخمة ، وكان المريض داخل السيارة رجلا جالسا منتصب الظهر ، رجلا محنوا كان تاريخ شاربه الرمادي الطويل يرجع الى حياد ١٩١٤ وكان يلبس زيا رسميا قديم الطراز ويضع على رأسه قلنسوة من الفراء تغطي أذنيه .

ومال الرجل المريض بسرعة على جانب الطريق ، لقد كان السفر مكتملا تقريبا، ولكن لكي يتبع طريقه في الغابة ، كان لا بد له من الاستعانة بمصباح الجيب الذي يحمله معه دائما ، اذ لم تعد أنوار السيارات كافية لارشاده في الطريق الخاص المؤدي الى بيت الهر بروفيسور وبينما كان يسير محاذيا خط الجليد على جانب الطريق أخذ يتمرن على تظلمه الأخير الذي سوف يتقدم به فاذا فشل هذا التظلم ، فلم يكون امامه سوى الذهاب الى المستشفى الا اذا وجد من الشجاعة ما يسمح له بالدخول في ماء البحيرة المثلج وعدم الخروج من هناك لم يكن لديه سوى قليل من الأمل ، وعندما حاول تحيل الهر بروفيسور جالسا امام مكتبه ، عاصبا متحملا بصعوبة هذه الزيارة المفاجئة المتأخرة عندما حاول تخيل ذلك لم يفهم السبب في انه لم يستطع أن يتخيل سوى اجنحة الشر بصف المشورة وسقاره العاثر في امعاء السجين متعلقا بها .

وبدا يترافع في صوت خفيض تحت الأشجار « ليس في هذا خطر على أي شخص يا هر بروفيسور - لقد قضيت حياتي كلها وحيدا . ليس لي عائلة ـ لقد ماتت اختي الوحيدة في العام الماضي ـ اني لا أرى أحدا ولا أتحدث الى أحد خلاف عملاء المصرف . كل ما هناك جلسة مع بعض السيدان من وقت لآخر . أستطيع ان أزيد من عمرك اكثر اذا حكمت بأن هذا لازم يا هر بروفيسور . وفيما يتعلق بالمصرف ، فاني معتاد باستمرار على لص قمارات لتقليب الأوراق المالية ، فمعظمها قذر جدا . سألتزم بكل الاحتياطات التي تشير بها علي اذا وافقت على أن تستمر في معالجتي سرا يا هر بروفيسور . اني رجل يحترم القوانين ، ولكن الروح أكثر أهمية من الحرف . أليس هذا صحيحا ؟ سوف احترم الروح في اخلاص .

***

كان مقار السر الذي لا يرحم قابضا بقوة على بروميثيوس، واستطرد المريض في حزن، كما لو انه يريد أن يسمع تكرار عبارة لن يطيق سماعها مرة ثانية « اني لا أحب التليفزيون يا هر بروفيسور ، انه يجعل عيني تدمعان . كما اني لم أحب الموتيف اطلاقا .

وتوقف تحت الأشجار ، وناء بعض بثقل كتلة من الجليد فسقطت على معطفه محدثة صوتا ، طلوك ، « وحيل اليه ، وان كان هذا شيئا قليل الاحتمال لدرجة كبيرة ، انه سمع موجات موسيقى بعيدة حملتها اليه الريح ثم أبعدتها عنه فورا .

بل لقد خيل اليه انه تبين فيما سمع أغنية مأخوذة من « الحياة الباريسية » احدى أنغام «الفايس» تريد لحظة قصيرة في هذا المكان الذي يلفه الجليد والليل من جميع جوانبه . ولم يكن قد رأى هذا المكان الا في وضح النهار، والآن يتساقط الجليد ماسا وجهه وتلتمع النجوم فوقه بين أشجار الصنوبر ، فظن أنه أخطأ الممر السليم واقتحم منطقة مجهولة يدور فيها حفل راقص .

ولكن عندما بلغ منحنى الممر أمام المنزل تبين المدخل وشكل النوافذ والانحدار الحاد الذي يتميز به السقف الذي كان الجليد بين لحظة وأخرى يتراكم منه ويسقط محدثا صوت رجل يقضم تفاحة . كان هذا كل ما استطاع أن يتبينه اذ لم يكن يسمح له قط أن رأى البيت بهذه الصورة، مليئا بالأنوار المشتعلة وبصوت الأصوات البشرية . ربما كان نفس المهندس قد شيد مكتبين متجاورين ثم أتى الزائر عند دخوله العاصفة ، فاتخذ الطريق الخاطىء . ولكي يتأكد، اقترب من النوافذ وكان الجليد الصلب تحت نعليه كالبلور الحاد .

***

وخرج صاحبان شابان يبدو عليهما بوضوح أثر الشراب ، خرجا مترنحين من الباب الرئيسي الذي كان قد ظل مفتوحا . وقال أحدهما :

ـ لقد خاسر رقم ١٩ هذا الرقم اللعين .

ـ اما انا فرقم صفر لقد ظللت محلقا للصفر طيلة ساعة كاملة ، ولم يحدث مرة واحدة أن ...

أخرج الشاب الاول مسدسا من الجراب المدلى الى جانبه وشرع يهزه في ضوء القمر ، وقال :

ـ ان الشيء الوحيد الذي ينقص البرنامج هو حادث انتحار ، فبدون حادث انتحار سيظل الجو ناقصا .

ـ خذ الحذر ، ربما كان المسدس محشوا .

ـ انه لكذلك ، من هذا الرجل ؟

ـ لاأعرف ، من المحتمل أنه السنتاني ، لانتهت كابله بهذه الآلة .

ـ ان ما ينقصنا هو النبيذ الذي

وحاول أن يضع المسدس في قرابه، ولكن المسدس أفلت ووقع في الجليد، ثم سوى الرجل قرابه الفارغ بعناية عظيمة وقال : «قليلا من النبيذ الذي يثير قبل ان يسدد الحلم » .

وعاد الصاحبان الى المنزل سائرين في خط يتلوى يمنة ويسرة ، وكان الشيء القاتم قد حفر لنفسه حيزا في الجليد .

اقترب المريض من النافذة ، ولو انه كان قد استدار في الاتجاه السليم لكان قد اكتشف انهما نافذة مكتب الهر بروفيسور . لكن تولد لديه في تلك اللحظة اعتقاد جازم انه بلغ في الظلام منزلا غير الذي كان يريد ، فبدلا من الحجرة الصغيرة المزينة ذات المكتب والمكتبة الثقيلين والدواليب المصنوعة من الصلب ، رأى قاعة طويلة تضيئها في عوة ثريات من البلور المصقول ، وقد ريست جدرانها بلوحات بشع بذوق مشبوه بسوء صغيرات مرتديات أقمصة

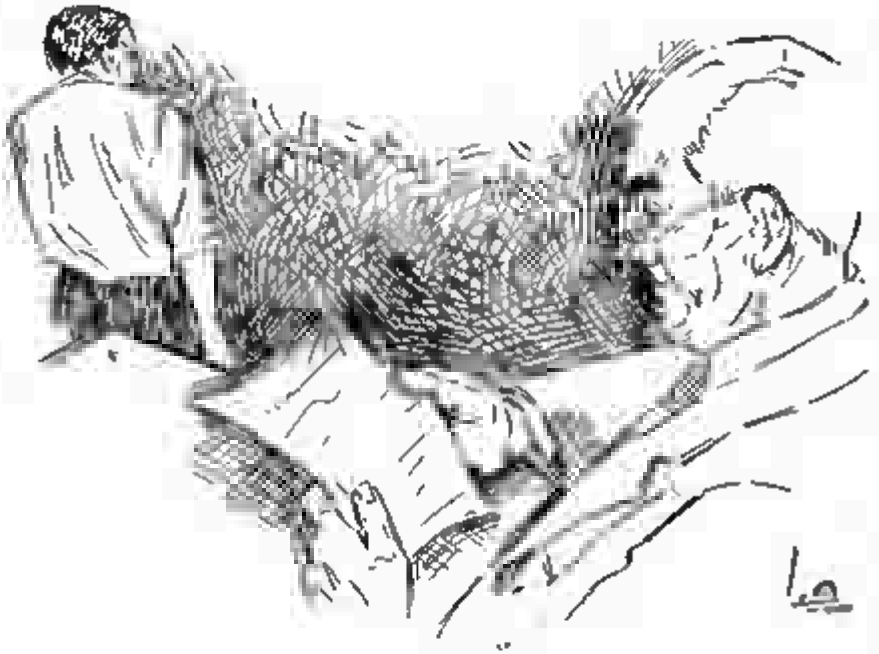

نوم شفاعة ، وقد انحنين في أوضاع مائلة فوق مجارى مياه احدى يخضن بين الزهور المائية .

وكان هناك جمع كبير من الرجال يلبسون الزى الرسمى أو ثياب السهرة يتدافعون حول ثلاث موائد روليت . وكانت نداءات الموظفين تملأ مسامعه مختلطة في الظلام ! ضعوا رهانكم أيها السادة ، ضعوا رهانكم ، في حين كانت فرقة موسيقية بعيدة تعزف في الحديقة السوداء «الدانوب الازرق الجميل» كان المريض واقفا في الحديد دون حراك ، وقد وضع وجهه لصق زجاج النافذة ، واخذ يفكر فيما اذا كان قد اخطأ البيت ولكن كلا ، انه لم يخطىء البيت ، انه اخطأ البلد ، لقد كان يحس انه لن يستطيع العثور مرة أخرى على طريق العودة .. لقد كان يعبد خداعن بلده .

أمام احدى الموائد كان يجلس المحور الذى رآه في السيارة المرسيدس بنز ، وكان يداعب باحدى يديه شاربه ، وبالاخرى صفا من «الفيشات» الموضوعة أمامه ، وكان يعدها ويعيد ترتيبها في حين كانت الكرة تدور ثم تقفز لتستمر في الدوران ، وكان يدق بقدمه متابعا نغم «الارملة الطروب» . ومن اليسار انطلقت سيدة احدى رحلات الشمبانيا وارتطمت بالثريا في اللحظة التي صاح فيها الموظفون من جديد ، ضعوا رهانكم أيها السادة .

وفي تلك اللحظة رأى المريض البروفيسور واقفا مستندا بظهره الى النافذة من الطرف الآخر من القاعة الضخمة خلف الثريا الاخرى ، ونظر كل منهما للآخر طويلا وقد باعدت بينهما الضحكات والصيحات وبهرة الانوار .

ولم يمير البروفيسور المريض بوصوح ، اذ لم يكن يرى سوى خيال وجه ملتصقا بالجانب الخارجي للزجاج ولكن كان المريض يراه في وضوح تام على ضوء الثريا ، بل كان في استطاعته أن يرى ماارتسم على وجهه من تعبير .. ذلك التعبير الثائه الذي يصـــدر عن شخص دخل الى محل غير الذي كان يريد ومع المريض بده كما لو انه يريد أن يحيط الآخر علما انه سل الطريق هو ايضـــا ، ولكن بالطبع لم يستطع الهر بروفيسور أن يرى اشارته في الظلام . ورغم انهما كانا يعرفان بعضهما من قبل معرفة وثيقة ، الا انه كان مستحيلا تماما بالنسبة لهما (وكان المريض يدرك ذلك جيدا) أن يتلاقيا في ذلك البيت الذي وصل اليه كل منهما عن سبل الطريق نتيجة حادثة غريبة . لم يكن في ذلك البيت غـــرفة فحص ، ولا ملفات ، ولا مكتب ، ولا بروميثوس ، بل ولا طبيب يقدم اليه استرحامه ، وصاح الموظفون «صفوا رصاصكم ايها السادة ... صفوا رصاصكم .

قال الهر كولونيل :

ـ ياعزيزي الهر بروفيسور ، لاتنس أنك بصيصا ، وهكذا يجب عليـك ان تراهن معا ولو مرة واحدة .

ثم أخذه من ذراعه واصـــطحبه حتى مائـــدة اللعب حيث كان يجلس الهر جنرال مصاحبا الايقاع واحد ، اثنين ، ثلاثة ، على انغام «البهار» .

ـ ان الهر بروفيسور يود أن يجرب حظه معنا يا هر جنرال .

فأجاب الجنرال : فان حظي ضئيل هذا المساء ، تفضل .. ورسم بأصابعه رسما على الجوخ .. الخ الرقم الصفر .

دارت الكرة وقمرت ودارت ثم توقفت وصـــاح الموظف «صفر» وبدأ في جمع النقود .

وقال الهر جنرال : انك على الاقـــل لم تخسر ياهر بروفيـــسور .

وبعيدا جدا ، وراء صوصاء الاصوات سمع صوت انفجار صغير .

وقال الهر كولونيل : « ان السادات ينطلق ، أتريد كاسا أخرى من الشمبانيا ياهر جنرال ؟

فقال الهر جنرال بابتسامة باردة الى درجة كبيرة : لقد كنت أتمنى أن يكون ذلك طلقة رصاص ، آه الايام الجميـــلة التي ولت .. انى اذكر ذات مساء في مونت .. التي الهـــر بروفيسور نظرة نحو النافذة حيث اعتقد منذ لحظة مضت انه كان هنا شخص يتجال داخل المنزل شخص ذو مظهر سائح مثله ، ولكن لم يكن هناك أحد .